كتب

على خُطى إسماعيل كاداريه في روايته «الحصن» التي وظّف فيها التاريخ لخدمة النظام الشمولي الحاكم سابقاً في ألبانيا، يكتب السوريّ طالب عمران رواية مغرقة بأدلجة التاريخ والحاضر، سواء ما يتعلّق بألبانيا أو بما جرى في سورية بين 2011 و2018

وثبٌ من الخيال العلمي إلى ما فوق الخيال التاريخي

استعمالات إسكندر بيك و«كنوزه»

محمد. م الأرناؤوط

في ثمانينيات القرن الماضي، برز في المشهد الثقافي السوري الأكاديميُّ طالب عمران (وُلد في طرطوس عام 1948) بعدّة روايات، ممثّلاً لما سُمّي «أدب الخيال العلمي»، بعدما عاد من «جامعة عليكرة» الهندية بدكتوراه في العلوم الرياضية - المنظومات التفاضلية، ليشتغل أستاذاً في كلية الهندسة بجامعة دمشق. لكن بعد أربعين سنة أصبح أغزر كاتب قصصي وروائي في العالم العربي في مجال «أدب الخيال العلمي»، بعد أن وصلَت مجموعاته القصصية وروايات إلى سبعين؛ ابتداءً من «ضوء في الدائرة المعتمة» (اتحاد الكتاب العرب في دمشق 1980) وانتهاءً بـ«في البحث عن المدينة المفقودة» (وزارة الثقافة السورية 2021). لكن، مع الوفرة الكمية التي بلغها عمران في هذا المجال، من دون الخوض في قيمتها الفنية، أصدر مؤخّراً رواية «كنوز إسكندر بيك» (دمشق 2021، لا تذكر الطبعة اسمَ الناشر)، التي انتقل فيها إلى مجال آخر لم يُوفَّق فيه لاعتبارات عديدة، فنّية وسياسية، لا تحتملها «رواية» من هذا النوع لتُغطّي على سبعين رواية ومجموعة قصصية له في مجال الخيال العلمي.

وفي الحقيقة، تنطلق هذه الرواية ممّا يفوق الخيال التاريخي (الموجود في الروايات الألبانية) لما جرى في ألبانيا في القرن الخامس عشر من قتال بين القائد الألباني العثماني المتمرّد على السلطان جورج كاستريوت، الذي اشتهر باسمه العثماني إسكندر بك بعد إسلامه، والحملات العثمانية عليه وصولاً إلى القتال الدائر في سورية خلال 2011 - 2018، وما حلّ بها من خراب بسبب «الإرهابيّين»، ليجعل بذلك أحداث الرواية تدور بين الماضي المفترَض والحاضر المشخّص ما بين ألبانيا وسورية، مع حرص واضح على أدلجة الماضي والحاضر هنا وهناك. وربما من المهم، هنا، ذكر أنَّ المؤلّف قام بزيارة إلى ألبانيا قبل أسابيع لترويج كتابه هناك، واعترف لكاتب ألباني بأنّ كلّ ما كان يعرفه عن ألبانيا كان من قراءته لروايات اسماعيل كاداريه المترجمة، وخاصّةً رواية «الحصن» التي تدور حول مقاومة إسكندر بك للحملات العثمانية التي أُرسلت لحصاره في حصنه بمدينة كرويا في وسط ألبانيا، وهو ما يذكره صراحة في روايته، مع استشهاده عدّة مرات بما ورد فيها. وإذا أخذنا بعين الاعتبار ما قام به كاداريه من أدلجة في روايته لصالح النظام الشمولي الحاكم في ألبانيا آنذاك، نجد أنّ عمران سار على هذا النحو في الأدلجة في روايته، سواء فيما يتعلّق بألبانيا أو ما يتعلّق بما جرى في سورية بين 2011 و2018.

اختار طالب عمران موضوع روايته الجديدة من توليفة تجمع بين التاريخ الألباني في بداية الحكم العثماني وتاريخ سورية في نهاية حكم المماليك وبداية الحكم العثماني، وبين الحاضر سواء في ألبانيا المعاصرة التي «غزاها» بعض العرب بحجّة الدعوة للإسلام لأجل التمتّع بالزواج من فتياتها أو في سورية التي «غزاها» الغرباء من العرب وغير العرب لتدمير البلاد.

لكن لأجل حبكة كهذه، تجاوَز المؤلّف ما هو موجود ومستهلَك في الخيال التاريخي في الروايات الألبانية ليُبدع جديداً لم يسبقه إليه أحد من الكتّاب الألبان. وهكذا تقوم هذه الحبكة على وصية للقائد إسكندر بك قبل وفاته إلى أقاربه وأتباعه أن ينجوا بأنفسهم من العثمانيّين وأن يذهبوا إلى اليونان أو سورية التي كانت تحت الحكم المملوكي المعادي للعثمانيّين، إذ يمكن أن يلقوا هناك الأمان لهم. وكان من هؤلاء أحد أحفاد إسكندر بك الذي حمل معه «كنوزاً» من المخطوطات الألبانية التي تتضمّن ما كتبه المؤرّخ الألباني عبد اللطيف عن معارك إسكندر بك من داخل الحصن، وهي مخطوطاتٌ تختلف عن السردية العثمانية للمؤرّخ العثماني الذي كان يرافق الجيش العثماني. وتنتهي الرواية بعد مسلسل مطوّل على طريقة «الأبطال والحرامية» في دمشق القديمة وحاراتها وأنفاقها إلى العثور على هذه «الكنوز» من المخطوطات التي نُقلت إلى ألبانيا وأصبحت الآن «تُدرس بحرفية متقنة من قبل خبراء في الخط والآثار القديمة» حسب ما يرد في الصفحة الأخيرة للرواية (ص 276).

لعبة أبطال وحرامية

بعد سبعين رواية ومجموعة قصصية من «الخيال العلمي»، تأتي رواية طالب عمران الجديدة مفاجأةً للقارئ؛ ابتداءً من شكل غلافها الذي يَصلح لكتاب آخر غير الرواية، وطباعتها الرديئة التي تخلو من اسم دار نشر او مطبعة، وصولاً إلى حبكتها المفتعلة التي تستلهم ما فوق الخيال التاريخي لتُحوّل الرواية إلى «لعبة أبطال وحرامية» في دمشق القديمة وضواحيها بين «حماة البلاد والإرهابيّين».

حرصٌ واضح على أدلجة الماضي والحاضر في سورية وألبانيا

يقتصر ما يعرفه عن ألبانيا على ما قرأه من ترجمات لكاداريه

ما هو فوق الخيال التاريخي في هذه الحبكة هو أنّ الألبان كانوا يمرّون بحالة انتقالية في القرون الوسطى، وبالتالي لم يكن يوجد لديهم بعدُ لغة ألبانية مكتوبة في ذلك الوقت، ولا مخطوطات باللغة الألبانية، ولذلك ربما لاحظ المؤلّف خلال زيارته إلى ألبانيا بعد صدور روايته عدم وجد وثيقة واحدة بالألبانية في «متحف إسكندر بك» المهيب في حصن كرويا، الذي بُني خلال الحكم الشمولي، سواء بخطّه أو بخط أحد من كُتّاب الرسائل لديه.

مما يلفت النظر في هذه الرواية أنّ المؤلّف كسر الحاجز بين الواقع والإيهام بالواقع، سواء بالتصدير الذي كتبه كأكاديمي للرواية (ص 3)، والذي عبّر فيه عن إعجابه بالقائد إسكندر بك، أو باختياره لنفسه شخصية رئيسية (باسم تيسير) فيها. فمنذ الصفحة الأولى، لدينا إشارات كثيرة إلى نفسه وعمله في الجامعة والإعلام وشهرته ومعرفة ضبّاط وعناصر الحواجز في سورية له... وهكذا تبدأ الرواية في الصفحة الأولى (ص 5) من اتصال هاتفي يتلقّاه وهو «في مكتبه في الكلية» من زوجة زميله الذي راح ضحية «تفجير إرهابي». وعندما قرّر السفر إلى ألبانيا وانطلق إلى المطار «كان يمر على الحواجز سريعاً، وغالبية من فيها يعرفونه من خلال اسمه المشهور» (ص15). وحتى عندما وصل إلى مطار بيروت «لم تكن إجراءات المطار معقّدة، وقد أبدوا له احتراماً لكونه أستاذاً في الجامعة» (ص 16)، وحتى عندما يجد من يعرفه في مطار إسطنبول يُعرّف بنفسه قائلاً: «أنا أكتب الرواية والقصة، وأغلبها عن الأزمان المقبلة» (ص 27)، وعندما وصل إلى مطار تيرانا والتقى بصحافي، عرّف نفسه: «أنا كاتب... أكتب عن المستقبل» (ص 30-31) وغير ذلك الكثير.

لكنّ المفاجأة تأتي في نهاية الرواية، حينما يكتشف بعد عودته إلى دمشق للبحث عن «الكنوز» التي جاءت مع حفيد إسكندر بك، أنّه من أصل ألباني، وأنّ «جدّه البعيد في القرن الخامس عشر» تزوج حفيدة إسكندر بك التي جاءت آنذاك إلى دمشق هرباً من العثمانيّين، وتنتهي بقصة حب مع ألبانية تعرّف عليها في ألبانيا (سالي) وعاد معها إلى ألبانيا بصحبة «الكنوز» التي عثرا عليها. تكشف الرواية، منذ الصفحة الأولى، عن شخصنة أُخرى تُميّز كلّ العمل، ألا وهي الفوبيا من كلّ ما هو تركي وعثماني، والتي أصبحت تُعبّر عن المزاج الرسمي الجديد في سورية بعد «سنوات العسل» (2000 - 2011). ولا شكّ في أنّ اختيار شخصية إسكندر بك بعد أن تحوّل من قائد عسكري في الجيش العثماني إلى قائد معادٍ له خدم هذا المسار الروائي، إذ تعجّ الرواية بما قام به الجيش العثماني في القرى المجاورة للحصن خلال حصار إسكندر بك وبعد وفاته، ثم ما قام به العثمانيون بعد فتحهم لسورية من «مذابح وحشية في كلّ مكان» (ص 78). ويرتبط هذا الموقف بتركيا الأردوغانية التي سعت إلى إحياء التراث العثماني الذي لم يكن يلقى معارضة خلال تحسّن العلاقات بين البلدين، لكنّه تحوّل إلى فوبيا بعد 2011.

لكنّ الموقف من العثمانيّين، الذي يرد عادةً بمقاربة الأسود والأبيض في المؤلّفات التاريخية والأدبية العربية المعاصرة، لا يفترض أن يقود بالضرورة إلى فوبيا أُخرى من الأتراك أو من كلّ ما هو تركي؛ فنظراً إلى أنّ خطّ سفر المؤلف - سعد في الرواية - إلى تيرانا يمرّ عبر مطار إسطنبول، يُصبح انتقاد ما هو تركي مباحاً حتى في الأمور التي لا يُتّفق عليها، ومن ذلك انتقاد رجال الشرطة في مطار إسطنبول لإهمالهم لما يحدث في المطار من خطف للشنط من السيّدات، وحتى انتقاد «فقر» الوجبات المقدّمة على «الخطوط الجوّية التركية»!

(كاتب وأكاديمي كوسوفي سوري)

النص الكامل
على الموقع الالكتروني

تمثال لإسكندر بكّ في الساحة التي تحمل اسمه بتيرانا (Getty)

نظرة أولى

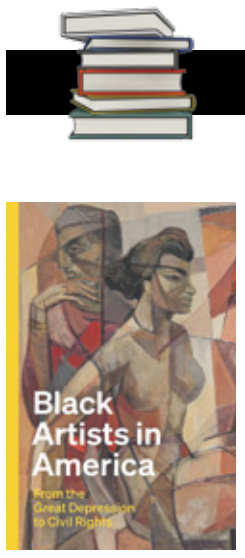

«فنانون سود في أميركا: من الكساد الكبير إلى الحقوق المدنية» عنوان الكتاب الذي يصدر نهاية الشهر الجاري للباحثة في الفن الأفريقي، إيرنستين لوفيل جينكينز، عن «منشورات جامعة ييل». يستعرض العمل الأساليب المتنوّعة التي استجاب بها الفنانون الأميركيون السود للمناخ السياسي والاجتماعي والاقتصادي في الولايات المتحدة منذ الكساد الكبير عام 1929 وصولاً إلى حركة الحقوق المدنية في الستينيات، عبر دراسة أعمال فنانين مثل جاكوب لورانس، وأوغستا سافاج، وتشارلز وايت، وإليزابيث كاتليت، ونورمان لويس، ووالتر أوغسطس سيمون.

بتحقيق يوسف السناري، يصدر قريباً، ضمن «السلسلة الثقافية» في «معهد المخطوطات العربية»، كتاب «**ثلاث رسائل متبادلة بين محمود شاكر وناصر الدين الأسد**». كُتبت هذه الرسائل خلال فترة عمل الناقد الأردني (1922 - 2015) مدرّساً في «جامعة بنغازي» عام 1959، وهي السنة ذاتها الذي اعتُقل فيها المحقّق المصري (1909 - 1997) بتهمة انتمائه إلى تنظيمات معادية للحكم الناصري. جمعت الرجلين مسائل عديدة أهمّها انحياز شاكر للأسد في أطروحة الدكتوراه في الردّ على كتاب «في الشعر الجاهلي» لطه حسين، حيث كتب الأسد أطروحته في بيت شاكر.

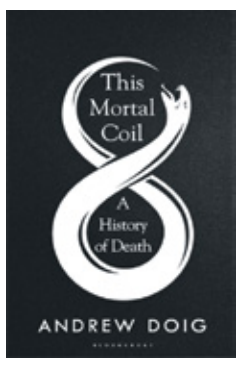

عن «منشورات بلومزبيري»، يصدر الشهر المقبل كتاب «**هذا الملف المميت: تاريخ الموت**» للمفكّر أندرو دويغ. يناقش الكتاب تغيّر أسباب الوفاة عبر الزمن؛ حيث انتقلت البشرية من عالَم كان من المرجّح أن يصيب فيه المرض أيّ شخص في أيّ سن، وأن تقضي المجاعة مثلاً على الملايين، إلى عالم يشكّل الغذاء الزائد فيه مشكلة في العديد من البلدان، مبيّناً لماذا تغيّرت أسباب موتنا، وكيف كان الناس يموتون بشكل رئيسي قبل قرن من الأمراض المعدية، بينما تُعدّ أمراض القلب والسكتة القلبية الأسباب الرئيسية للوفاة في الدول الصناعية.

عن «دار خطوط وظلال» تصدر هذه الأيّام النسخة العربية من كتاب «**تاريخ العرب**» للمؤرّخ الإسباني رودريغو خيمينيز دي رادا، بترجمة أيمن التميمي. يُعدّ العمل من الكتب التي وضعها مؤلّفون أوروبيّون خلال العصور الوسطى عن العرب وتاريخهم؛ حيث يضيء على الفترة من عهد النبيّ محمّد وحتى انهيار الخلافة الأموية في الأندلس في عام 1031 ميلادية وقيام ممالك الطوائف فيها ودولة المرابطين في المغرب الإسلامي. يستمدّ الكتاب أهمّيته، بحسب المترجم، من كونه أوّل دراسة غربية مفصّلة لا تزال موجودةً إلى اليوم حول تاريخ العرب.

بتوقيع أنوار يوسف، تصدر هذه الأيام عن «دار الرافدين» رواية «**بورتريه سيّدة**» للكاتب البريطاني من أصل أميركي هنري جيمس (1843 - 1916). صدر العمل، الذي يعتبره النقّاد أفضل أعمال جيمس الروائية، ضمن حلقات في صحيفة «أتلانتيك» ومجلّة «ماكميلان» بدايةً من سنة 1880، قبل أن يصدر في كتاب عام 1881، ويُحوَّل إلى فيلم سينمائي من إخراج جين كامبيون عام 1996. تَطرح الرواية قضايا الحرية الشخصية والمسؤولية والخيانة من خلال قصّة شابّة فقيرة وذكيّة تُدعى إيزابيل آرشر ترث ثروة طائلة، ما يجعل منها هدفاً لصائدي الثروات.

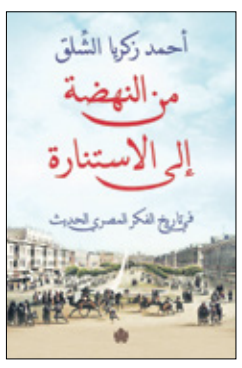

عن «دار الكرمة»، صدر حديثاً كتابٌ للباحث المصري أحمد زكريا الشِّلق بعنوان «**من النهضة إلى الاستنارة: في تاريخ الفكر المصري الحديث**». يعود العمل إلى جذور الفكر الحديث في مصر؛ من خلال الإضاءة على عدد من المفكّرين الذين أسهموا بكتاباتهم في فكر النهضة والحداثة والتنوير في مصر بين بداية القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين وربط إسهاماتهم بالسياقات الاجتماعية والسياسية والثقافية؛ بدايةً بحسن العطّار، مروراً برفاعة الطهطاوي، وحسين المرصفي ومحمد عبده وقاسم أمين وأحمد لطفي السيد، ووصولاً إلى أحمد فتحي زغلول.

«استراحة بين الكتب: كلّ هذا الحضور، كلّ هذا الغياب» عنوان كتاب صدر حديثاً للكاتب المصري إبراهيم عبد المجيد (1946) عن «منشورات إبيبدي». يضمّ العمل مجموعة من المقالات التي كتبها عبد المجيد (في الصحافة، أو تنشر لأوّل مرة) حول كتب قرأها أو تعرّض فيها إلى قضايا الكتابة والحياة الثقافية بشكل أوسع. من مؤلّفات الكاتب المصري الأخرى: «ليلة العشق والدم»، و«البلدة الأخرى»، و«لا أحد ينام في الإسكندرية»، و«الإسكندرية في غيمة»، و«الشجر والعصافير»، و«إغلاق النوافذ»، و«فضاءات»، و«سفن قديمة»، و«الهروب من الذاكرة».

«سيرة الأجواق المسرحية العربية في القرن التاسع عشر» عنوان كتاب صدر مؤخّراً عن «منشورات المتوسط» وهو عبارة عن تحقيق أنجزه تيسير خلف لمذكّرات الممثّلين عمر وصفي ومريم سماط، اللذين عاصرا بدايات ظُهُور الفرق المسرحية المُحترفة في مصر، خلال ثمانينيات وتسعينيات القرن التاسع عشر، وقد جمع بينهما العمل ضمن «جَوْق أبي خليل القبّاني» بين عامي 1894 و1901. وهنا تكمن أهمّية إضاءة مذكّراتهما في الثقافة العربية، فالمادّة التي يعتمدها المؤرّخون عادة لتناول بدايات المسرح العربي هي الصحافة أو النصوص المسرحية.